الخطبة البتراء لزياد بن أبيه :

أما بعدُ ، فإنَّ الجهالةَ الجهلاءَ ، والضلالةَ العمياءَ ، والغيَّ [١] ، الموفيَ [٢] بأهلهِ على النَّارِ ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمورِ العِظام ، ينبتُ فيها الصغيرُ ولا يتحاشى عنها الكبيرُ . كأنكم لم تقرأوا كتاب اللهِ ، ولم تَسْمَعوا ما أعدَّ اللهُ من الثوابِ [٣] الكريمِ لأهلِ طاعتهِ ، والعذابِ الأليمِ لأهلِ معصيتهِ [٤] في الزمن السرمدي [٥] الذي لا يزول .

أتكونون كَمن طَرفت عينيه الدنيا [٦] وسدَّت مسامعه الشهواتُ ، واختار الفانيةَ على الباقيةِ . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلامِ الحدثَ الذي لم تُسبقوا إليه من تَرْكِكِم الضعيفَ يُقهرُ ويؤخذُ ماله .

ما هذه المواخيرُ [٧] المنصوبةُ والضعيفةُ المسلوبةُ في النهارِ المبصرِ ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن منكم نهاة [٨] تمنعُ الغُواة [٩] عن دَلَج الليل [١٠] وغارةِ النَّهار ؟! قرَّبتمُ القرابةَ وباعدتمُ الدينَ . تعتذرون بغير العذر وتغضُّونَ على المختلس . كل امرئ منكم يذُبُّ [١١] عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف

١- الغي : الضلال .
٢- الموفي : المشرف .
٣- الثواب : الجزاء على أعمال الخير .
٤- المعصية : الزلة .
٥- السرمدي : الأزلي الأبدي .
٦- طرقت عينيه الدنيا : طمحت عيناه إلى الدنيا وزخرفها فشغلنا بها عن الآخرة .
٧- المواخير : بيوت الريبة .
٨- النهاة : الزاجرون ، المانعون .
٩- الغواة : الظالمون
١٠- دلج الليل : السير فيه .
١١- يذب : يدافع .

عاقبةً ولا يرجو مَعاداً [١] ما أنت بالحلماء ولقد اتبَّعتم السفهاءَ ، فلم يزلُ بكم ما تَرونَ من قيامِكمُ دونهم حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام ، ثم أطرقوا وراءَكم كنوساً من مكانس الرّيَب [٢] .

حرامٌ علىّ الطعامُ والشرابُ حتى أسوِّيها بالأرضٍ هدماً وإحراقاً ! إني رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلُحَ به أوَّلُه : لينُ في غير ضعف، وشدةٌ في غير عنف. وإني أقسم بالله لأخذنَّ الوليَّ بالمولي [٣] ، والمقيمَ بالظاعن [٤] ، والمقبل بالمدبر [٥] ، والمطيعَ بالعاصي ، والصحيحَ بالسقيم ، حتى يلقي الرجلُ منكم أخاه فيقول : " انجُ سعد ، فقد هلك سُعيد ، أو [٦] تستقيمَ قناتُكم .

إن كذبَة الأميرِ بلقاءُ مشهورةٌ ، فإذا تعلَّقتم علىَّ بكذبة حلَّتْ لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها فاغتموزها فيَّ ، وأعلموا أن عندي أمثالها . من نُقبَ منكم عليه [٧] فأنا ضامنٌ لما ذَهبَ منه . فإياي ودلجَ الليلِ فإني لا أوتي بمُدلج إلا سفكتُ دمه .وقد أجَّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ إليكم . وإيَاي ودعوى الجاهلية [٨] ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لِسَانَه . وقد أحدثتم أحداثْا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنبٍ عقوبة . فمن غرّق قوماً غرَّقناه ، ومن نقّب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه

١- المعاذ : الآخرة .
٢- الكنوس : المختبئون . المكانس الملاجئ ، وتكون للوحوش تختبئ ، فيها . الريب التهم .
٣- الولي : السيد . المولى العبد .
٤- الظاعن : المسافر .
٥- المدبر : الذاهب .
٦- أو ناصبة لأنها أتت بمعنى : إلى أن .
٧- نقب عليه : سرقت داره .
٨- دعوى الجاهلية : دعوى العصبية والنزق .

فيه حيا ! فكفُّوا عني أيدَيكم وألسنَتَكم أكففْ عنكم يدي ولساني . ولا تظهرُ من أحدٍ منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامتُكم إلا ضربتُ عُنُقَه . وقد كانت بيني أقوم إحَنٌ [١] فجعلتُ ذلك دَبْرَ [٢] أذني وتحت قدمي . فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته .إني لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك [٣] له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته [٤] فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فربَّ مبتئسٍ بقدومنا سيُسَرُّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناسُ ، إنا أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً ، نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذودُ عنكم بفيء [٥] الله الذي خوَّلنا ، فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أحببنا ولكم علينا العدلُ فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أني مهما قصّرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا جابسا عطاء ولا رزقاً عن إبّانة [٦] ، ولا مجمِّراً [٧] لكم بعثاً .

وأيم الله ، إنَّ لي فيكم لَصَرعي كثيرةً ، فليْحذر كلُّ امريء منكم أن يكون من صرعاي .

١- الإحن : الأحقاد .
٢- دَبْر : خلف .
٣- أهتك : أشق .
٤- يبدي لي صفحته : يكشفني .
٥- الفيء : الغنيمة .
٦- إبانة : حينه .
٧- التجمير : حبس الجنود عن العودة إلى أهلهم .

زياد بن أبيه
٦٧٢ م و ٥٣ هـ

حياته :

لما كان زياد غير شرعي الوالد فقد تعددت أسماء والده ، فهو زياد ابن أبيه وهو ابن سميّة وابن أبي سفيان وابن عُبَيد . ولد بالطائف بين السنة الأولى والثامنة للهجرة ، وأمه جارية للحرث الثقفي تدعى سميَّة .

عرف زياد منذ حداثته بمزايا لا تظهر عادة إلا في الرجال ، منها النجابة : والفصاحة ومنها الحزم والشدة والدهاء ، فما كاد يشب عن الطوق حتى استكتبه أبو موسى الأشعري ، وهو على البصرة من قبَل عمر بن الخطاب.فاستبد بإعجاب الناس . وإذا بعمر يوكل إليه إحدى المهام فقام بها على أحسن وجه ، وعند رجوعه دخل على عمر ، وفي حضرته قوم من المهاجرين والأنصار بينهم عمرو بن العاص وأبو سفيان والد معاوية ، وألقي خطبة هزّ بفصاحتها قلوب الحاضرين، فقال عمرو : " لله در هذا الغلام ، لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : إني أعرف أباه . فقال عمر : من هو ؟ قال أنا هو . وإلى هذا القول استند معاوية حين استلحق زياداً بأبيه .

ولما استخلف علي بن أبي طالب ولّي زياداً على فارس فساسها بدقة وحزم. ولكن ذلك لم يرق لمعاوية فكتب إلى زياد يعنفه ويعرّض به ، فردّ عليه زياد بلهجة أشدّ عنفاً وقسوة . فلما بلغ الأمر عليا كتب إلى زياد يطري عليه ويحذره من معاوية .

وما كاد يقتل عليٌّ حتى استمال معاوية زياداً إليه واستلحقه بنسبة ثم ولاه البصرة وأعمالها . وعندما مات المغيرة بن شعبة أمير الكوفة وألقي في مسجدها أولى خطبة حصبه الناس . فأمر بإقفال الأبواب والقبض على المشبوهين وقطع أيديهم .

وكان زياد على وشك أن يتولى أمور الحجاز عندما أصيب بالطاعون فقضي عليه . وكان ذلك سنة ٦٧٣ م و ٥٣ هـ .

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب لما بلغه موته : " أذهب ابن سمية . لا الآخرة أدركتَ ، ولا الدنيا بقيت عليك " .

المناسبة :

كانت البصرة في أيام معاوية مركزاً لاستفحال المعارضه ، وخلية لمختلف العصبيات يؤلفّ الخوارج والبدو المتعصون لتقاليدهم القبلية معظم سكانها . لذلك كان يسودها تياران : تيار النزاع المستمرّ والفساد والاضطراب ، وتيار التماسك ضدّ الأمويين .

وكان على معاوية أن يقف بوجه المدينة الثائرة فلم ير خيراً من زياد يرميها به وهو العليم بإخماد الفتن والخروج من المآزق .

دخل زياد البصرة والياً عليها وهمه ضبط أمورها وإخضاعها للحكم الأموي. وما كاد يستقر به المكان حتى جمع الناس في مسجدها وألقى بين أيديهم خطبته البتراء التي لم يبدأها بالحمدلة أو البسملة أو التصلية ، ومن ثم أخذ يطبق الشرائع التي سنها ، يسير وبين يديه الحراب والعمد . ولكثرة ما عنف في حكمه وقسا ، هابه الجميع وخضعت له الأحزاب واستتب الأمن .

قيل أن أعداء زياد هم الذين أطلقوا على خطبته أسم البتراء ليشنعوا عليه ، ولكن تلك التسمية لم تخفض من قيمتها . وقيل أيضاً إنما سميت البتراء لأنها كالسيف القاطع .

المحتوى :

أوضح ما في البتراء أقسام أربعة هي التالية :-

١. **حالة البصريين :** لقد جمحت بهم المساوئ والشرور، فالجهل والضلال والغي من بضاعة سفائهم وحلمائهم على السواء ، ربي عليها الصغار وفي ركابها سار الكبار. أتراهم جهلوا الإسلام وتناسوا تعاليم القرآن وأغمضوا عيونهم عما أعد الله من ثواب للمتقين وعذاب للفاسقين في الحياة الباقية ؟

أباستطاعة من دانوا بالإسلام أن يجعلوا طريقهم محفوفة بالآثام والفواحش ؟ هل ضربوا بالعمي فحجبت عن عيونهم الفضائل ، أم صمت منهم الآذان فليس في آذانهم غير ضجيج الشهوات ؟.

ما أعجب أمر أهل البصرة ، يعلون شأن الدنيا الزائلة ويخفضون قيمة الآخرة الدائمة . هم دعاة المعاصي في الإسلام ، فالضعيف على أيديهم يقهر ، والضعيفة تسلب في وضح النهار وليس بينهم من ينهي عن منكر أو يدفع عن غواية .

إنكم يا أهالي البصرة خارجون على تقاليد الدين ، وأعذاركم غير مقبولة ، تشيحون بأنظاركم عن الفحشاء ، وتتعهدون السفهاء بالعناية ، كأنكم لم تخشوا عقاباً ولم تأملوا معاداً . لقد فسحتم المجال للأشرار فتمادوا في شرّهم وانتهكوا حرمة الإسلام وتستروا في أقبية الريب ومخابئ الفجور.

٢. **موقف زياد من هذه الحالة :** يخطط زياد في هذا القسم من خطبته لسياسية إصلاح عامة ، عمادها " اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف . بهذه السياسة قضى قبله عمر ابن الخطاب على مفاسد الجاهليين ، وبها سيقضي زياد على مساوئ البصريين .

هو يحّرم على نفسه الطعام والشراب إلى أن يسوَي البصرة بالأرض هدماً وإحراقاً . وفي سبيل الوصول إلى غايته يقسم أن يأخذ الولي بالمولي ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح بالسقيم ، حتى يضجّ الناس من هول ما يلاقون ويخلدون إلى السكينة .

إن في هذا القول غير دليل على تفهم زياد لعمق المسؤولية ، والإحاطة بالتبعات الملقاة على كواهل الجماعة . فهو يعلم أن وراء الخارجين على القوانين ومرتكبي الآثام أصابع تحرك الفتن في الخفاء وتعمل في الظلام ، ثم يتلبس أصحابها البراءة ويدّعون المسالمة .

ويسير زيادة في بسط تشريعه القائم على الشدة ، فيتعهد بتنفيذ ما يعد به ، وبتطبيق ما يعلن من نظام عرفي يتعلق بالسرقة ودلج الليل ودعوى الجاهلية " فمن نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله . وإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه ... وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه " .

وجعل لكل ذنب عقوبة ، " فمن أغرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً " .

بمثل هذه اللغة يدعو زياد الناس إلى أن يكفوا عنه أيديهم وألسنتهم ، وإلا كان عقاب كل ريبة ضرب العنق .

لقد كان بينه وبين بعض البصريين عداوات سابقة ، ولكنه لن يحرّك رمادها ويتخذ منها سبيلا إلى القسوة والتشفي ، وإنما سيترك لهؤلاء مجال العودة إلى حياة العمل والمسالمة حيث سيسود العدل والنظام . " فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس " .

٣. **شرعية الخلافة الأموية والإذعان لها :** بعد أن حقق زياد غايته في القسمين السابقين من ضبط أمور البصرة ، ينتقل هنا إلى إخضاع البصريين للحكم الأموي معلناً نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الراعي والرعية . وأول ما يريد تثبيته في الآذان هو ما للأمويين من حق إلهي في سلطتهم ، فهم أصبحوا للناس ساسة وعنهم ذادة، يسوسونهم بسلطان الله الذي منحهم إياه ، فهم خلفاؤه على الأرض، فعلى الناس إذن أن يسمعوا ويطيعوا ، وعلى الحكام أن يعدلوا ، إنها شراكة بين الحاكم والمحكوم قائمة على التناصح والتعاون .

ثم يعلن زياد أنه لن يقصر عن ثلاث : قضاء حاجاتهم ولو أتوه تحت ستر الظلام ، إعطاؤهم الرزق في حينه ، عدم حبس الجنود في أرض الأعداء .

٤. **الخاتمة :** وينهي زياد خطبته بقسم صاعق يدعو به الناس إلى احترام القانون وإلا كان له بينهم صرعى كثيرون .

الدراسة الأدبية :

أول ما يجبه به زياد البصريين في الخطبة البتراء عرضه لما يبيحون لأنفسهم من عصيان قام على المنكر والفساد . ثم تعدي نطاق البيئة بأحكامه حين سن للعقوبات قانوناً لم يألفوه .

وبعد ذلك ينفي إضمار الحقد لأي كان من أعدائه أو مبغضيه ، فيدعوهم إلى استئناف العمل ويعدهم بإقامة العدل .

وفي النهاية ينصحهم بالخضوع للأمويين الذين استمدوا من الله سلطانهم.وإذا به يأبى إلا أن يكون الختام صاعقاً مدوياً .

لقد نزلت هذه الخطبة على البصريين لا هبة مجلجلة فأرهبتهم وتركتهم مذهولين واجمين ، فالتهديد فيها صارخ ، والوعيد مخيف . ولئن قال قائل عند سماعها :" أنبأنا الله بغير ما قلت " ، أجابه زياد : " إنا لا نبلغ المراد منك ومن صاحبك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً ." ولقد حقق تهديده ووعيده فكان رهيباً في تطبيق أحكامه .

إن مميزات الخطبة ، من حيث العمل الصناعي ، كثيرة أبرزها البلاغة ، وما يتحدر عنها من جلاء المعاني ، وإيجاز الألفاظ ، وتنسيق فني متكامل .

هو يبدو مرشداً يضع البصريين أمام ذنوبهم ، ويحرك روح الدين في صدورهم، فيذكرهم بالعقاب والثواب .

ثم يبدو مشترعاً يضع عقوبات جديدة لمفاسد غير مألوفة . وهذه العقوبات ستنفذ بدقة وحزم ، حتى إنه يحل لهم معصيته إن هو تباطأ في التنفيذ أو أخذ عليه شيء من الكذب .

والظاهر أن العرب في مطلع الإسلام ظلوا متعلقين بجاهليتهم لكثرة ما فرض عليهم الدين الجديد من نظم لم يتعودوها . لذلك يسألهم زياد أن يتمثلوا به وإلا ضرب منهم الأعناق .

وبعد ذلك يبدو حكيماً عادلاً يترفَع عن الضغائن والأحقاد ويتنزه عن الحزازات والميول الشخصية .

ويبدو أخيراً سياسياً داهية ، تمرس بالتجارب ، فيعلى شأن الأمويين ، ويفضلهم على سواهم من الحكام ، سائلاً البصريين الانقياد لهم ، فتقضي حاجاتهم ، وينالون رزقهم في وقته ، ويطلق سراح الجيش فلا يحبس في أرض العدو .

وكأني بزياد أراد أن يكون النغم الأخير داوياً ليظل صدى التهديد هادراً في الآذان ، فختم خطبته بهذه الجملة الصاعقة التي قفز إليها قفزاً : " إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امريء أن يكون من صرعاي ".

لقد اعتمد زياد الأسلوب الخطابي بما فيه من بناء ووضوح وإقناع وتأثير.

وهو في مقدمته وتدرجه إلى الموضوع ، واستخلاص النتائج ، يقيم خطبته على الفكر المجرد والتقسيم المنطقي والأدلة الدينية .

وقد يعود ما في خطبة زياد من إرعاد وإراقة دماء إلى تأثره بعمر ، ولكنه تجاوز لين الخليفة الراشدي الذي دعا الناس إلى إصلاحه أن رأوا فيه إعوجاجاً ، وكاد يصعق أحد منتقديه .

نستنتج من ذلك أن التشابه بين الخطيبين ، هو في الصلابة لا في الإسراف في العقاب .

ومتى عرفنا أن الخطابة الإسلامية عامة وخطابة زياد خاصة تأثرت بواقع السياسة الأموية وقد هددت بالتداعي ، لم تنكر عليها العنف والقسوة .

ولشدة إنفعال زياد رأينا التناقض من مزايا خطبته ، فبعد أن أعلن في مستهلها إتباع سنة اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف ، نراه ينسى خطته وينقض على سامعيه بالويل " فيسوى البصرة بالأرض هدما وإحراقاً، ويقسم بالله ليأخذن الولي بالمولى والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي ."

ويريد أن يعلم الناس أن تهديده ليس من قبيل الإيهام فهم في حل من طاعته أن لم يصدق فيما وعد به " فيستغرق من أغرق ، ويحرق من أحرق وسيدفنهم أحياء ".

ومن البراهين على شدة تماسك الفكر عند زياد عدم انشغاله بالحكم المتفرقة شأن الجاهلين على أن البتراء وإن كانت خلوا من الآيات القرآنية فهي لم تخل من النفحة الدينية يثير الخطيب ملامحها في تضاعيف السطور بطريقة غير مباشرة .

وزياد شديد التخير لألفاظه وتعابيره ونعوته ، يحسن المزاج بين الإيجاب والنفي ، يتلاعب بأساليب الإنشاء فمن تقديم إلى تأخير إلى تأكيد أو قسم ، يدعم بكل ذلك فكرته ويوطد بناء خطبته .

وفي البتراء تتجلى شخصية زياد القوية ، فهو الممثل للبيت الأموي ، العارف بأحوال البيعة ، الخبير بالسياسة والحكم ، يرفده ذكاء وقاد ومعرفة عميقة بطبائع الجماهير .

وفيها مظهر للفتن التي هزت عصر بني أمية ، ولتكاثر الأحزاب والفرق ، ولاهتمام الأمويين بما آلت إليه البلاد من اضطراب كان عليهم أن يخمدوه لتوطيد سلطانهم .

قال الثعالبي : " ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كان كلماً أكثر كان أجود كلاماً ".

وقال احسن البصري : " أوعد عمر فعفا ، وأوعد زياد فابتلي ".

ولا عجب أن يقال في زياد مثل هذا القول وهو الذي صح فيه ظن أبن العاص فساق الناس بعصاه .